•الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية•

_ وزارة التعليم العالي والبحث العلمي_

جامعة الحاج لخضر _ باتنة نيابة العمادة المكلفة لما بعد التدرج

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والبحث العلمي والعلاقات الخارجية

والعلوم الإسلامية_ قسم العلوم الإسلامية_

الموضـوع

جهود محمد عبد الله دراز في التفسير الموضوعي

دراسة وتحليل

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في العلوم الإسلامية_ تخصص الكتاب والسنة_

إعداد الطالب إشراف الأستاذ الدكتور

محي الدين بن عمار منصور كافي

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
أ.د .مصطفى حميداتو	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	رئيسا
أ.د. منصور كافي	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	مقررا ومشرفا
أ.د .نذير حمادو	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر_ قسنطينة	عضوا مناقشا
د. نادية وزناجي	أستاذ محاضر	جامعة باتنة	عضوا مناقشا
د.صونيا وافق	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر_ قسنطينة	عضوا مناقشا
د.عبد الحليم قابة	أستاذ محاضر	جامعة الجزائر	عضوا مناقشا

السنة الجامعية:1433/1432هـ_2012/2011

•الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية•

_ وزارة التعليم العالي والبحث العلمي_

جامعة الحاج لخضر _ باتنة — نيابة العمادة المكلفة لما بعد التدرج

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية — والبحث العلمي والعلاقات الخارجية

والعلوم الإسلامية_ قسم العلوم الإسلامية_

الموضـوع

جهود محمد عبد الله دراز في التفسير الموضوعي

دراسة وتحليل

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في العلوم الإسلامية_ تخصص الكتاب والسنة_

إعداد الطالب — إشراف الأستاذ الدكتور

محي الدين بن عمار — منصور كافي

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
أ.د .مصطفى حميداتو	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	رئيسا
أ.د. منصور كافي	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	مقررا ومشرفا
أ.د .نذير حمادو	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر_ قسنطينة	عضوا مناقشا
د. نادية وزناجي	أستاذ محاضر	جامعة باتنة	عضوا مناقشا
د.صونيا وافق	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر_ قسنطينة	عضوا مناقشا
د.عبد الحليم قابة	أستاذ محاضر	جامعة الجزائر	عضوا مناقشا

السنة الجامعية:1432/1433هـ_2011/2012

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى من قدما لي في الصغر أعظم الهدايا...هدية الإيمان...

إلى روح الوالدين الكريمين

إلى من خلقا فيّ روح البحث، وبعثا فيّ أمل الإبداع...

إلى زوجتي الحبيبة لويزة وابني الغالي محمد تمّام

إلى جميع إخواني وأخواتي وزوج أختي النوار، وخالي كمال، وأصدقائي الذين أشعروني بلذة الجد والمثابرة

إلى كل من استلهم القرآن الكريم نورا ومنهاجا ودستورا للحياة ودعوة إلى معالي الفضائل ومكارم الأخلاق

إليهم جميعا أهدي هذا العمل العلمي الجديد...

محي الدين

شكر وتقدير

بعد حمد الله تعالى وشكره على نعمه وآلائه الجديدة و المتجددة، أتوجه بخالص شكري وامتناني إلى أستاذي الغالي عليّ الأستاذ الدكتور منصور كافي على رعايته وتوجيهاته العلمية و المنهجية في متابعة بحوثي العلمية

والشكر موصول أيضا إلى الأساتذة الدكاترة الأفاضل:

عبد الحي الفرماوي، مصطفى حميداتو، عبد الحليم قابة، عبد القادر طالبي، وصونيا وافق على روح النقد، والملاحظات العلمية البناءة.

وإن كنت أنسى فلا أنس قسم الكتاب والسنة في كلية العلوم الإسلامية بجامعة باتنة، فإلى عميد الكلية ورئيس قسم الكتاب والسنة وجميع الأساتذة والعمال مني جزيل الشكر والعرفان.

محي الدين.

مقدمة

الحمد لله منزل خير كتاب، والصلاة والسلام على من كان خلقه القرآن، وعلى آله وصحبه والتابعين أهل القرآن والإيمان، وعلى من سلك طريق القرآن إلى يوم الحساب، أما بعد:

فمما هو متفق عليه بين المفكرين والدارسين المعاصرين، أن التفسير الموضوعي يعتبر من أهم ألوان التفسير في عصرنا الحاضر؛ إذ هو يعبر عن إعجاز القرآن الكريم في وفائه لحاجيات البشر الجديدة والمتجددة، وصلاحيته لكل زمان ومكان؛ ذلك أنه يستشف الهدايات القرآنية بما يستنطقه من دلالات النص المطلقة، وتحقيقا لغاية الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وهي عبادة الله رب العالمين، وتعمير الأرض وفق منهج الاستخلاف، وذلك كله انطلاقا من النظرة الكلية الشاملة لحقائق القرآن.

ولقد كان محمد عبد الله دراز من بين أهم علمائنا المعاصرين، المهتمين بهذا اللون من التفسير، وذلك في مجموعة من مؤلفاته العلمية، وكانت له في ذلك جهود معتبرة أشار إليها بعض الدارسين والمتخصصين في هذا المجال، ولذا ارتأيت أن أبسط هذه الدراسة حول جهوده العامة في التفسير الموضوعي وقضاياه الأساسية، في بحث موسوم بـ «جهود محمد عبد الله دراز في التفسير الموضوعي – دراسة وتحليل–».

1 -أهمية الموضوع: حيث تتمثل فيما يلي:

أ – ما لهذا المنهج التفسيري من الأهمية البالغة في الوفاء بحاجات البشر طولا وعرضا وعمقا.

ب –بيان أهمية هذا المنهج التفسيري في مقارنة المناهج الأخرى التي يبدو أنها قد أوفيت حقها من الدراسة والبحث والتأليف.

ج –المساهمة في التأصيل لهذا المنهج، وتجلية جوانبه العلمية والمنهجية.

د –المساهمة في سد فجوة في المكتبة الجامعية عن التفسير الموضوعي وأعلامه المنظرين له؛ إذ لا يزال هذا الموضوع باكورا في ميدانه.

2 -إشكالية البحث:

ورد عن الشيخ محمد الغزالي –رحمه الله–(نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم،ص05) أن دراز كان أول من فسر السورة القرآنية تفسيرا موضوعيا في كتابه "النبأ العظيم".

وهذا افتراض منهجي مهم تنبثق عنه أسئلة متعددة: هل كان –فعلا– دراز أول من فسر السورة تفسيرا موضوعيا، فضلا عن أن يكون أول من نظر لقواعد هذا المنهج التفسيري؟ وهل كان يباشر العلمية التفسيرية وفق نمط التفسير الموضوعي؟ وهل كان له في ذلك تصور واضح لحقائقه ومفاهيمه؟ وواعيا له ومدركا لألوانه ومناهجه؟ كيف نظر دراز للتفسير الموضوعي؟ وهل يعتبره علما أم منهجا أم

طريقة فحسب؟ وما علاقة التفسير الموضوعي بالوحدة عنده؟ ما هي حقيقة الوحدة؟ وما أنواعها ومسمياتها؟ وهل هي متحققة عنده أصالة أم متحققة دفاعا وردا على شبهات المستشرقين؟ وما هي ملامحها ومعالمها العامة في تفسيره؟

وبتعبير آخر أجمع: ما هي جهود وآراء دراز في التفسير الموضوعي؟ هل هي جهود تأسيسية تأصيلية؟ أم هي جهود تراكمية بنائية؟ وما صدى هذه الآراء والجهود في مؤلفاته العلمية؟ وما أثرها في الدراسات المعاصرة من بعده تنظيرا وتطبيقا؟

3 -**أسباب اختيار الموضوع**: حيث تتنوع إلى قسمين:

3-1- **ذاتية**: تتمثل في ميولي وتعلقي بشخصية محمد عبد الله دراز –رحمه الله-، وبعقليته المجددة الفذة، خاصة وأنه لم يحض بالاهتمام الكافي –حسب علمي- في الدراسات القرآنية التخصصية؛ بالرغم من أن آراءه القرآنية تناثرت في مؤلفاته العلمية ، واشتهرت بين القاصي والداني.

3-2- **موضوعية**: وتتمثل فيما يلي:

أ -جدة الموضوع وقلة العناية به.

ب -كون الموضوع –بهذا التحديد- لم يتناول في رسائل علمية أكاديمية خاصة عن فكره القرآني في التفسير الموضوعي.

ج -رغبتي المتواضعة في خدمة كتاب الله، خاصة من خلال هذا المنهج المعاصر.

د -يعتبر محمد عبد الله دراز من أهم المفسرين النابهين في جانب الإصلاح والدعوة إلى الله بكشف الهدايات القرآنية، وهذا ما يتوافق مع روح التفسير الموضوعي.

4 -**من أهداف البحث**: ويمكن حصرها فيما يلي:

أ - التعرف على الظروف التاريخية لنشأة التفسير الموضوعي، وفهم الأطر المعرفية والمنهجية له؛ من حيث استقلاليته عن باقي مناهج التفسير الأخرى.

ب -الكشف عن بنية الوحدة الموضوعية، وإسكات المشتشرقين وأذنابهم من المستغربين القائلين أن سور القرآن الكريم تشمل عناصر لا رابط بينها ولا انسجام.

ج -استقطاب الباحثين إلى هذا المنهج، لتدبر القرآن الكريم وفق نظرة كلية، للكشف عن هداياته وثمراته الإيمانية.

د -السعي إلى تمتين المرجعية الإسلامية؛ وذلك بربط المسلمين بعلمائهم ومفسريهم، والذين يُتفيؤ بهم ظلال الإيمان وينعم بهداياته.

هـ -التأكيد على وجه من وجوه الإعجاز القرآني، وهو تماسك نظمه، وتناسق آياته وسوره.

و -الاستزادة من العلم والسعي إلى توسيع المعارف، والمساهمة في واقعيتها.

ز -التعريف بتفسير دراز، والكشف عن حقيقة رجل قد طهر اسمه في ترابه فلم يظهر بجلاء من كل جوانبه للدارسين المعاصرين.

5 -منهج البحث وخطته:

أولا: المنهج: حيث تتضح طرائقه من خلال ما يلي:

أ - **الوصف والتحليل:** وهذا لب منهج البحث؛ إذ يتعلق بتحليل أقوال ونصوص الشيخ دراز التفسيرية، شرحا وتفكيكا.

ب -**الاستنباط:** وهو مرحلة موالية للوصف والتحليل؛ إذ به تستنتج المفاهيم، والآراء، وتوضح الجهود، والاجتهادات، والقواعد العامة الجامعة للآراء والأقوال التفصيلية.

ج -**المقارنة والنقد:** حيث توضع جهوده وآراؤه على محك النقد العلمي تقييما وتقويما، ومن خلال مقارنتها بآراء الدارسين المعاصرين له، أو العاقبين بعده، وذلك لمعرفة محطات الاتفاق والاختلاف والإبداع.

ثانيا: الخطة: و قد تم تقسيم أفكار هذا الموضوع الأساسية عبر المراحل التالية:

ينقسم البحث إلى ثلاثة فصول أساسية وفصل تمهيدي ومقدمة وخاتمة.

أما مقدمة البحث، ففيها يوضع القارئ في الإطار المعرفي للبحث، من خلال بيان أهميته، وإشكاليته الأساسية، وأسباب اختياره، والأهداف المبتغاة من ذلك، ومنهج البحث وخطته العامة، وبيان الدراسات السابقة نقدا واستفادة، ثم تعريج بذكر مصادر البحث ومراجعه الأساسية، وبالمعوقات العلمية التي اعترضت طريق الباحث وهو يصوغ موضوع بحثه.

وأما الفصل التمهيدي: فخصص للتعريف بشخصية محمد عبد الله دراز الاجتماعية والعلمية، ثم لمعرفة أوضاع عصره السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والعلمية التي عاشها، فكان بذلك هذا الفصل مقسما إلى مبحثين رئيسيين.

وأما الفصل الأول: فأُلِّفَ قصد الاطلاع الدقيق على حقيقة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم في الدراسات المعاصرة، فاستدعى ذلك -أيضا- تقسيمه إلى مبحثين كبيرين: الأول منهما لبحث حقيقة التفسير الموضوعي، وألوانه، ومناهجه، وتطبيقاته، والثاني كان لكشف حقيقة الوحدة الموضوعية، ماهية ونشأة، أنواعا ومسميات، معالم منهجية، وأهدافا مقاصدية.

وقد خصص الفصلان الأخيران للحديث عن منهج دراز التفسيري، وآرائه في التفسير الموضوعي خاصة؛ فكان الفصل الأول منهما، -وهو الفصل الثاني للبحث- منصبا اهتمامه الكشف عن معالم المنهج العامة عند دراز؛ فقسم إلى أربعة مباحث: الأول في التعريف بمؤلفاته التفسيرية، والثاني: في بيان قواعد المنهج التحليلي، والثالث: في بيان قواعد المنهج الموضوعي، والأخير: في كشف مزايا تفسيره الشكلية، والمضمونية، والبيانية.

وكان الفصل الأخير مخصصا لتحليل آراء دراز في التفسير الموضوعي، والوحدة الموضوعية التي هي ثمرته وغايته؛ فقسم -هو الآخر- إلى أربعة مباحث أساسية: الأول لقضايا التفسير الموضوعي، والثاني لقضايا الوحدة القرآنية، والثالث لتقييمه وتقويمه، والأخير لبيان آثاره في الدراسات المعاصرة، ثم تأتي خاتمة البحث لتسجل من خلالها أهم نتائج الموضوع وملخصاته.

6 -الدراسات السابقة:

ولم أعثر -حسب علمي- على دراسة خاصة لهذا الموضوع بالتحديد، رغم شهرته العلمية، وإنما وجدت دراسات عامة، كرسالة حافظ محمد منير الأزهري: محمد عبد الله دراز وجهوده في الفقه الإسلامي، وهي دراسة عامة في القرآن، والتفسير، والسنة النبوية، والأخلاق، ومقارنة الأديان تشمل في ذلك جميع مؤلفات دراز، ولكنه لم يتحدث عن التفسير الموضوعي إلا من خلال صفحة واحدة (ص80)خصصها للحديث عن الوحدة الموضوعية، ولكن من غير رجوع إلى كتاب دراز "حصاد قلم"، في عبارة لا تمت بصلة إلى الوحدة الموضوعية.

وأما باقي مباحث التفسير، فهي محاولة من الباحث إسقاط مباحث كتاب "منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير" لفهد الرومي على مؤلفات دراز القرآنية(من ص75 إلى ص108).

كما أن هناك رسائل ثلاثة أخرى: الأولى بعنوان:محمد عبد الله دراز ومنهجيته في البحث الخلقي: لمحمد البيومي عبد الواحد، و الثانية بعنوان:محمد عبد الله دراز وجهوده البلاغية لمحمد أمين أبو شهبة، و الثالثة بعنوان:موازنة بين الباقلاني وعبد الله دراز في إعجاز القرآن لغربي صالح، ولكني لم أطلع

إلا على الرسالة الثالثة الصادرة من جامعة قسنطينة، واستفدت منها من صفحتين درس فيها الباحث معاني الارتباط للسورة عن دراز(من ص 151 إلى ص154).

أما الرسالتان الأوليتان فمتواجدتان في جامعة الأزهر بمصر، ولم تتح لي الفرص لأسافر إلى هناك، وأطلع عليهما.

7 -مصادر البحث ومراجعه:

فهي متنوعة وكثيرة، فمنها مؤلفات دراز القرآنية، والدراسات المعاصرة في التفسير الموضوعي، والمؤلفات القديمة في علوم القرآن والتفسير، ومختلف التفاسير، وكتب الأخلاق والتراجم والمعاجم، والمجلات وشبكة الانترنيت.

8 -الطريقة المعتمدة في كتابة الرسالة:

فقد حريصا في كتابة فصول الرسالة على التزام النقاط التالية:

أـ ترقيم جميع الآيات الواردة في الرسالة، وذلك بذكر اسم السورة ورقم الآية بين معكوفتين في متن الصفحة، وليس في هامشها فرارا من التضخم، وتسهيلا الرجوع إليها.

بـ تخريج الأحاديث الواردة فيها، وذلك بعزوها إلى مصادرها الأصلية قدر الإمكان.

جـ حاولت الالتزام بالتوازن التام في تقسيم فصول الرسالة؛ إلا أن المادة العلمية وطبيعة الدراسة فرضا التقسيم المعتمد في الرسالة، مما نتج عنه انعدام التطابق التام بين فصولها.

دـ أنني لا أترجم لكل الأعلام الواردة أسماؤهم في ثنايا الرسالة، وإنما أخص بالترجمة لأهم الأعلام المطمورين، والذين عاينوا الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في عصر محمد عبد الله دراز دون البقية؛ لأن تتبعهم جميعا بالترجمة يضخم من حجم الرسالة على ما هي الآن، ويصيّر الرسالة إلى كتاب تراجم لهؤلاء الأعلام الكثيرة أعدادهم في ثنايا هذه الرسالة.

هـ ـ أني اتبعت فهارس عامة للآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والآثار، والأعلام، والمصادر والمراجع، ثم للموضوعات العامة للرسالة.

واتبعت في فهرس المصادر والمراجع ما التزمته من التهميش لها في متن الرسالة؛ من حيث ذكر عناوين المؤلفات أولا، ثم أتبعها بذكر أسماء أصحابها ثانيا، ثم بباقي المعلومات من ذكر دار النشر ومكانه، وعدد الطبعات، وسنة النشر، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإني أسبق ذكر أسماء المؤلفين على ألقابهم أو كناهم في فهرسي الأعلام، والمصادر والمراجع، وذلك تناسبا مع الترتيب الداخلي لهم في ثنايا الرسالة.

و_ وأخيرا فإن هناك اختصرات _يجب أن تعلم_ لعناوين مؤلفات دراز القرآنية في كلماتها الأولى لها؛ فكتابه"دستور الأخلاق في القرآن" اختصر إلى " الدستور"، و"النبأ العظيم" إلى " النبأ"، و" حصاد قلم" إلى " الحصاد"، و" دراسات إسلامية واجتماعية في العلاقات الدولية" إلى "الدراسات"، و"زاد المسلم للدين والحياة" إلى "الزاد" وهكذا.

9 -صعوبات البحث:

ولم تصادفني عراقيل وصعوبات كثيرة، إلا ما كان منها متعلقا بطبيعة البحث وموضوعه، خاصة بعض الآراء الساخنة في نفي الوحدة الموضوعية عند دراز، كرأي محمد رجب البيومي، وسامر عبد الرحمان رشواني وغيرها.

ومع ذلك فإن التعمق في البحث، وسبر أغواره أنار الطريق، وكشف سبيل الدراسة، وجمع أشتات آراء دراز التفسيرية الموزعة في مؤلفاته القرآنية على ضخامتها وكثرتها وعمقها.

و لا يسعني في الأخير قبل أن أضع قلمي، إلا أن أتوجه بخالص شكري، وعظيم امتناني إلى أستاذي المشرف الدكتور منصور كافي؛ الذي لم يتوان لحظة واحدة _ خلال هذه المسيرة العلمية الطويلة التي عشتها معه_ إسداء النصائح العلمية، وإرسال العواطف الأبوية، وتقييم الأخطاء العلمية والمنهجية.

فالله اسأل أن يجزيه في ذلك خير ما جازى أستاذا عن طلبته، كما لا أنسى أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى جميع الأساتذة الذين ساعدوني من قريب أو من بعيد، حتى يرى هذا البحث النور، ويخرج هذا العمل إلى الوجود.

وإني لأتضرع إلى الله سبحانه وتعالى أن يغفر لي زلات هذا الجهد، وهنات هذه الدراسة، كما أشكره –قبل شكر كل مخلوق– أن متعني بصحتي، وألهمني فكري، وسدد خطاي، ووفقني لإنجاز هذه الدراسة العلمية، فاللسان يعجز عن إدراك حقائق هذه النعم المتجددة، والإقرار بالعجز اعتراف بالنعم وشكر للمنعم كما قيل. والحمد لله رب العالمين.

فصل تمهيدي

محمد عبد الله دراز

عصره، سيرته، ومكانته العلمية

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: عصره(الأوضاع الساسية والاقتصادية والاجتماعية ، والحالات الفكرية والثقافية)

المبحث الثاني: سيرته ومكانته العلمية

المبحث الأول:

الأوضاع السياسية والاجتماعية والأحوال الفكرية والثقافية.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أوضاع مصر السياسية والاجتماعية،

وأحوالها الفكرية والثقافية.

المطلب الثاني: أوضاع فرنسا السياسية والاقتصادية والاجتماعية

والثقافية أثناء الحرب العالمية الثاني

من المتفق عليه أن نتاج كل مؤلف هو ثمرة قضايا عصره التي عاشها وعاينها، وانعكاس طبيعي لتأثره بها أو تأثيره فيها، ولهذا كان منهجيا البدء بدراسة قضايا وأوضاع العصر الذي عاش فيه مؤلفنا محمد عبد الله دراز.

تتوقف دراسة عصر المؤلف الذي عاش فيه على تحديد البيئة الزمنية و المكانية التي وجد فيها، والأحداث التاريخية التي حدثت فيها ومدى تأثره بها أو تأثيره فيها.

ومحمد عبد الله دراز لم يحيا في بيئة زمنية ومكانية واحدة؛ بل قضى معظمها في وطنه الأم مصر الكنانة، واستوطن فرنسا مدة اثني عشر عاما، ولذا سنركز هنا على دراسة الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية لمصر في البيئة الزمنية والمكانية التي عاشها أولا من سنة 1894 إلى غاية سنة 1936، ثم ثانيا من سنة 1936إلى غاية وفاته سنة 1958.

ثم سندرس بدرجة أقل هذه الأوضاع في فرنسا من سنة 1936 وإلى غاية سنة 1948، لنبين نوع الموضوعات ودرجتها التي شغلت تفكيره وتأليفه هناك.

المطلب الأول: أوضاع مصر السياسية والاجتماعية وأحوالها الفكرية والثقافية.

اتسم العصر الذي عاش فيه دراز بالصراعات والحروب والأزمات، سواء بين الدول العظمى في سبيل فرض سياسة عالمية ذات تيار فكري وأيديولوجي أحادي القطبية، أو كان ذلك الصراع بين هذه الدول العظمى والشعوب المستضعفة تحت نيران الاحتلال، وذل التبعية على كل المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الثقافية والحضارية.

الفرع الأول: الأوضاع السياسة والاقتصادية والاجتماعية.

تعاقبت على مصر أحداث تاريخية محلية وأخرى عالمية نقلتها من طور إلى آخر أكثر تأزما، وأشد ضعفا وتبعية عما كانت عليه من قبل، وأهم هذه الأحداث التاريخية:

أ. ما قبل الحرب العالمية الأولى:

وقعت مصر كغيرها من البلدان العربية تحت نيران الاحتلال البريطاني الذي فرض سيطرته على البلاد بمجموعة إجراءات تعسفية؛ إذ قام بخلع إسماعيل باشا وتنصيب ابنه توفيق بدلا عنه،[1] ثم قام

[1]- محمد علي وأولاده: جمال بدوي، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، ص 260 وما بعدها.

بعد ذلك بإلغاء الجيش المصري والصناعات الحربية والإصلاحات العسكرية، ولم تسلم البحرية المصرية – أيضا– من هذا الإلغاء، ولم يكتف بذلك؛ بل سيطر على البوليس المصري، وعيّن دبلوماسيين انجليز داخل الحكومة المصرية،[1] قصد ضبط السياسة الداخلية والخارجية لمصر وفق مصالح انجلترا.

وقد دعاه ذلك إلى إلغاء مجلس النواب المصري وحله، وإحلال الجمعيات العمومية، ومجالس المديريات العامة، ومجلس شورى القوانين، كل ذلك في سنة 1883، وهي نفس السنة التي أنشأ فيها المحاكم الأهلية وفرض فيها لوائح قانونية، ومجالس نيابية وقضائية تعسفية،[2] خنقت الشعب المصري وأردت به إلى أوضاع اجتماعية واقتصادية خطيرة جدا، فظهرت الأمراض الفتاكة كمرض الكوليرا، وتدهور المستوى المعيشي، وضعف الدخل الفردي إلى مستويات دنيا،[3] فتفاقمت الأحداث بذلك ودفعت الشعب المصري بقياداته الوطنية إلى الانتفاض والثورة، لكنها لم تحقق المبتغى من ذلك، كما عرفنا ذلك من الثورة العربية الشهيرة سنة 1881م.

وقد أشرك الانجليز معهم بعض دول أوروبا في اقتسام أملاك مصر وخيراتها الوطنية الوفيرة، وذلك في عقد معاهدات بين انجلترا وبين هذه الدول الأوربية، وذلك من أجل كسب تأييدها ودعمها للوجود الانجليزي في مصر.

كان من بين تلك المعاهدات معاهدة أول يوليو 1890 بين انجلترا وألمانيا «تضمنت إقرارا ألمانيا للمركز الذي دعته انجلترا في أعالي النيل».[4]

بل إن انجلترا حاولت كثيرا السيطرة المباشرة على قناة السويس، رغم أن اللجنة الدولية قد نصت أنها تنظيم حياد وذلك في معاهدة الأستانة 29 أكتوبر 1888، مع تحفظ انجلترا في ذلك.[5]

ومن مظاهر اضطراب الأوضاع السياسية في مصر تعاقب الوزارات على حكومتها في ظرف قصير لم يتعد ثلاث سنوات؛ إذ تعاقبت على الحكومة المصرية وزارة نوبار، ثم وزارة رياض باشا، ثم وزارة

---

[1]– مصر قبل عبد الناصر: عبد العظيم رمضان، الهيمنة المصرية العامة للكتاب، 1995م، ص 100 وما بعدها.

[2]– مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال: عبد الرحمان الرافعي، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1404 هـ، 1983م، ص 47 وما بعدها، 61 وما بعدها.

[3]– المرجع نفسه، ص 39.

[4]– المرجع نفسه، ص 160.

[5]– مصر من قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر: ريمون فلاور، ترجمة: سيد أحمد الناصري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،2002،ص 138.

مصطفى فهمي باشا، بين سنة 1888 وسنة 1891، واستمرت هذه الاضطرابات بوفاة الخديو توفيق باشا في 07 يناير 1892، وتولى الخديوية من بعده عباس الثاني. [1]

وهكذا «لم تنته السيادة العثمانية على مصر بوقوع الاحتلال البريطاني، بل ظلت مصر تخضع لها من الناحية النظرية، بينما كانت تخضع من الناحية الفعلية لقوات الاحتلال، واستمر ذلك حتى انتهزت بريطانيا فرصة الحرب العالمية الأولى، فأسقطت السيادة العثمانية وأعلنت الحماية البريطانية على مصر في 18 ديسمبر 1914».[2]

وقد فرضت انجلترا إجراءات اقتصادية ومالية صارمة أثرت سلبا على الاقتصاد المصري الوطني، وعلى الحالة المعيشية للشعب المصري؛ فبالرغم من أن الحكومة المصرية تحت وزارة "شريف باشا" ألغت نظام الرقابة المالية الثنائية الذي فرضته الدول الأوربية على "الخديو إسماعيل" في 18 نوفمبر 1876، وذلك لمراقبة إيرادات الحكومة ومصروفاتها. [3]

فمع كل ذلك إلا أن شريف باشا قد أخطأ بعد ذلك في قبول تعيين مستشار مالي إنجليزي للحكومة المصرية بعد الثورة العربية، الذي وإن لم يكن له في مرسوم تعيينه سلطة الرقيب، لكنه صارت له هذه السلطة تدريجيا، [4] ثم إن الاحتلال الانجليزي قد اتخذ سياسة اقتصادية عجيبة؛ إذ ركز على تخصيص مصر للزراعة، بل وتركيز ثروتها الزراعية في القطن، وإهمال الزراعات الأخرى، ثم تشجيع الأجانب على استثمار رؤوس أموالهم في المشروعات الزراعية والصناعية والتجارية[5] .

وقد نجم عن هذه السياسة القضاء على الحياة الصناعية في البلاد ، وجعلها عالة على انجلترا وعلى الدول الأوربية في حياتها الاقتصادية.

ومن ثم وقفت النهضة الصناعية سنسن عديدة، وألغيت البعثات الصناعية إلى الخارج، وأقفلت المصانع، وبارت الصناعات الحربية في البلاد؛فقد ألغي مصنع الورق ببولاق سنة 1885،وألغيت دار صك النقود،وبيعت مغازل القطن ومصانع النسيج،والتي كانت باقية على عهد محمد علي. [6]

---

[1]- مصر والسودان في أوائل الاحتلال: عبد الرحمان الرافعي، ص 171 وما بعدها.

[2]- تاريخ مصر المعاصر: شوقي الجمل وآخر، دار الثقافة، القاهرة، ص 09.

[3]- مصر والسودان في أوائل الاحتلال: عبد الرحمان الرافعي، ص 41.

[4]- المرجع نفسه، ص 43.

[5]- مصر من قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر: ريمون فلاور، ص 205.

[6]- مصر والسودان في أوائل الاحتلال: عبد الرحمان الرافعي ، ص 189.

وقد اعترف اللورد كرومر في تقريره سنة 1905بتدهور الصناعة الوطنية فقال:« إن المنسوجات الأوربية حلت محل المنسوجات الوطنية، وبانقراض المنسوجات الوطنية أخذت المنسوجات المحلية تنقرض أيضا»[1].

وقد فرضت الحكومة المصرية بموجب الأمر العالي الصادر بتاريخ 13 أفريل سنة 1901 ضريبة على جميع المصنوعات القطنية قدرها 8٪ تعادل مبلغ الرسوم الجمركية التي تحصل عن الغزل والمنسوجات القطنية الواردة من الخارج، فبارت صناعة غزل القطن في مصر إلى وقت طويل، وزادت تبعيتها الاقتصادية لانجلترا والخارج، وهذا ما أكده ليوبولد جوليان في تقريره ضمن لجنة القطن سنة 1910؛ إذ قال:« إن كل أمة يكثر فيها وجود المواد الأولى الضرورية للحياة يكثر فيها كذلك وجود المعامل لصنع تلك المواد، ومن أهمها القطن؛ فإن كل الأمم التي تزرعه تنشئ بجواره معامل لغزله ونسجه والانتفاع به، عدا مصر فإنها لا تزال فقيرة في معاملها، خاوية على الأخص من هذا الصنف»[2].

وأما من الناحية المالية فقد أجرى الاحتلال الانجليزي إصلاحات مالية كثيرة للحكومة المصرية قصد أن يطمئن أصحاب القروض _ وأغلبهم أجانب_ على أداء أقساط ديونهم السنوية، وخوفا من احتجاج دول هؤلاء الرعايا الأجانب على إنجلترا، فكانت بذلك مؤامرة استعمارية بين انجلترا وهذه الدول على استغلال مصر سياسيا واقتصاديا.

أما مالية الشعب فقد ساءت في عهد الاختلال؛ إذ كان دائم الحرمان من الامتيازات والقروض التي كانت تصرف إلى الرعايا الأجانب، فأسست بذلك البنوك الأجنبية، وشركات الرهون العقارية، والشركات المالية والزراعية، وشركات النقل والبناء, وشركات الفنادق وغيرها، وصارت الحياة المالية والاقتصادية في أيديهم، [3]وكانت أعباء تلك الشركات تلقى على عاتق مصر في شكل ديون متراكمة أفرغت خزينتها من الأموال؛ وشاهد ذلك ما قرره "الكونت كريساتي" سنة 1912 بقوله: «تبلغ قيمة أسهم الشركات المساهمة المملوكة للأوربيين 21,675,000 جنيه، وقيمة سنداتها 41,062,400 جنيه، ومجموع ذلك 62,737,400 جنيه تغل ريعا سنويا، مقداره 3,348,400 جنيه،

[1]- المرجع نفسه، ص189.
[2]- المرجع نفسه، ص 190.
[3]- مصر من قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر: ريمون فلاور، ص 204.